



ISSN: 1817-6798 (Print)

Journal of Tikrit University for Humanities

available online at: <http://www.jtuh.tu.edu.iq>
JTUH
 مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية
 Journal of Tikrit University for Humanities

Dr. Hamada Turki Zuaiter

Iraqi Ministry of Education /General
Directorate of Salah al-Din Education /* Corresponding author: E-mail :
hmadtrky242@gmail.com
٠٧٧٠١٧٤٠٣٨٩**Keywords:**Light
Shadow
poetry
Zafer Al Haddad**ARTICLE INFO****Article history:**

Received 6 Sept. 2020

Accepted 22 Sept 2020

Available online 26 Nov 2020

E-mail

journal.of.tikrit.university.of.humanities@tu.edu.iq

E-mail : adxxxx@tu.edu.iq

Light and shadow in the Poetry of Dhafer Al-Haddad

A B S T R A C T

The Phenomena of light and shadow occupied people's minds by seeing their sources on the earth and the sky . It influenced their culture and beliefs from ancient times and worked hard to explain them . It took an area of interest in international literature in general and Arabic literature in particular . When we read Zafer Al – Haddad's poetry , we find that lights and shadows are distinguished . This was in the duality of light and shadow . Thus the research tackles the relationship between them , their indirect values, their roles in evoking the worlds of beauty, and the foresight of dreams and dreamy spaces through the sense of sight . The role of the movement and stillness of light and shadow in awakening sensitive feelings and the dimensions of beautiful artistic images.

© 2020 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: <http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.27.2020.07>

الضوء والظل في شعر ظافر الحداد

د. حمادة تركي زعتر / وزارة التربية / المديرية العامة لتربية صلاح الدين

الخلاصة:

شغلت ظاهرتي الضوء والظل أذهان الناس عبر رؤية مصادرها في الأرض والسماء ، وأثرت في ثقافتهم ومعتقداتهم منذ قديم الزمان ، واجتهدوا في تفسيرها ، وأخذت مساحة من الاهتمام في الأدب العالمي بشكل عام ، والأدب العربي بشكل خاص ، ووجدت في شعر ظافر الحداد ظهوراً متميزاً للضوء والظلال ، جاء ذلك في ثنائية الضوء والظل والعلاقة بينهما ، و القيم غير المباشرة لهما ، ودور المخيلة الشعرية في استحضار عوالم الجمال واستشراف المرئيات والفضاءات الحاملة عبر حاسة البصر ، ودور حركة وسكون الضوء والظل في إيقاظ الأحاسيس ، ورسم ملامح وأبعاد الصور الفنية الجميلة.

المقدمة :

الحمدُ لله الرحمن الذي علّم القرآن وخلق الإنسان وعلّمه البيان والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ... أما بعد :

فإنَّ الشعراء في قديم عصورهم وحديثها اهتموا بظاهرتي الضوء والظل فلا تجد نصاً إلاّ وشكّلت الأضواء والظلال عنصراً فاعلاً في أبياته ، إذ أنّ الأمر يتم برصد الظواهر المرئية ووصفها.

إنّ حاسة البصر من أكثر الحواس تأثيراً في استشعار الموجودات وتحديد أبعادها ، تؤازرها الحواس الأخرى ، ولا تستطيع هذه الحاسة التدقيق في الجزئيات واستشراق الآفاق إلاّ بوجود الأضواء والظلال التي تساعد في رسم معالم المناظر بوضوحها وقتامتها ، وكلما كانت المناظر جالبة الأنظار ضاعفت حاسة البصر من فاعليتها في رصد الموجودات وحفظ أبعادها في الذاكرة ، لذلك جلبت هذه المناظر اهتمام الشعراء ، فوصفوها بما يتناسب مع أشكالها وما تثيره في نفوسهم من مشاعر ، ووظفوها في موضوعاتهم الشعرية بدلالاتها المادية والمعنوية.

ومما استرعى انتباهي ذكر ظاهرتي الضوء والظل في شعر ظافر الحداد الذي عاش في مصر ، وهو من شعراء العصر العباسي المشهورين ، ذلك العصر الذي امتاز بوفرة العطاء الشعري في أغراض الشعر كلها على مدى قرون عدة ، ووجدت أنّ هذا الشاعر تعامل مع هذه الظاهرة بما يدلّ على قوة شاعريته وسعة ثقافته وتوقد ذكائه ، وقد اختار لغته الشعرية المعبرة عن موضوعاته أفضل اختيار فجاءت صورته الشعرية بطريقة فنية تدل على ذوقه الرفيع في رسم ملامحها وتحديد أبعادها ، ودعاني ذلك إلى دراسة هذه الظاهرة في شعره والبحث في موضوعاتها ، وقسمت بحثي على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة ، عرّفت في التمهيد بالشاعر وذكرته مفهومي الضوء والظل وأهميتهما في الحياة ، واهتمام الناس بذلك منذ الأزمنة القديمة ، وأثر ذلك في الثقافات والمعتقدات عبر مصادر الأضواء والظلال في هذا الكون ، بعد ذلك جاء المبحث الأول على ذكر الرمز والإيحاء الشعري في الصورة الضوئية ، وقسمته على مطلبين ، المطلب الأول جاء تحت عنوان ثنائية الضوء والظل ، وأتى على ذكر المعاني الخصبية التي ترمز إلى الأمل وديمومة الحياة ، وجاء المطلب الثاني تحت عنوان القيم غير المباشرة للضوء والظل.

وجرى البحث في موضوع المخيلة الشعرية ودورها في استحضار عوالم الجمال المرئية والمتخيلة ، وبعد ذلك جاء المبحث الثاني تحت عنوان جمال الصورة الضوئية ، وقسمته على ثلاثة مطالب ، كان المطلب الأول تحت عنوان شعرية البصر ، وجرى البحث فيه في استشراق المرئيات

والتركيز على أشكالها وأبعادها ، وجاء المطلب الثاني تحت عنوان الفضاء الضوئي وتم التركيز فيه على ذكر الخيال الخصب الواعي في تعامله مع الفضاءات الحاملة بإشراقات الأمل ، أما المطلب الثالث فقد جاء الاهتمام فيه على ذكر الحركة والسكون في الضوء والظل وما امتازا ببعد حركي يوقظ الأحاسيس ويؤثر في المشاعر ، ثم جاءت الخاتمة لأذكر فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

وإني بذلت هذا الجهد في محاولة مني للتعريف بمفهوم الضوء والظل عند هذا الشاعر بطريقة انتقاء النصوص المناسبة للدراسة ، وما توفيقني إلا بالله ، والله من وراء القصد.

التمهيد

١- بطاقة تعريف بالشاعر :

ظافر الحداد : هو " ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله بن خلف الجذامي الاسكندري ، المعروف بالحداد ، الشاعر الأديب ، روى عنه الحافظ السلفي وطائفة من الأعيان ، وتوفي بمصر في المحرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة "(١) ، وصف الطبيعة والرياض والبساتين والمطر والثلج والنواير والكوانين وأبدع في ذلك.

٢- الضوء والظل :

الضوء لغة : " الضَّوء والضَّوء بالضم معروف : الضياء ، وجمعه أضواء ، وهو الضَّوَاء أو الضياء "(٢).

الضوء اصطلاحاً : " المؤثر الخارجي الذي يحدث الإحساس بالضوء "(٣) ، ويحدد الأشياء بأبعادها وألوانها ، تدركه حاسة البصر ، والضوء يرمز للسعادة ويعبر عن الحب والحياة والفرح ، ويوحى بالرفقة والأناقة والبراءة والتفاؤل والصدق.

الظل لغة : " نَقِيض الضَّح (الشمس) ، وبعضهم يجعل الظل الفيء ، قال رؤبة : كل موضع تكون فيه الشمس فتزول عنه فهو ظل وفيء ، وقيل الفيء بالعشي والظل بالغداة "(٤).

الظل اصطلاحاً : " الظلال ما هي إلا نتيجة لاعتراض الأجسام المعتمدة لمسار الأشعة الضوئية المنتشرة في خطوط مستقيمة "(٥).

والظل مساحة يُحجب عنها مصدر الضوء المتسلط على شكل ذي أبعاد محددة ، يمنع وصول الضوء ليتكون خيال أو ظل تأتي أبعاده تبين ذلك الشكل ، ويأتي على مراحل من التعتيم بين الضياء والظلمة ، والظل يوحى بالرفقة والأناقة والسحر والهدوء والنشوة والاستقرار والتلبث.

وظاهرتا الضوء والظل موضوع رئيس في معتقدات كثير من الناس في الأزمنة القديمة ، واستمر ذلك الاعتقاد عند بعض الأقوام في الزمن المعاصر ، وعبد كثير من الشعوب النار عبر أزمنة متعاقبة ، كونها مصدر الضوء والعطاء والقوة ، وعبد أقوام آخرون الشمس والقمر والكواكب ، وجاء ذكر ذلك في المحاجة التي حدثت بين إبراهيم (عليه السلام) وقومه الذين كانوا يقدسون الأجرام السماوية ، ويتخذون أصناماً لعبادتها.

جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ ﴾^(٦) وشغلت ظاهرة النهار

بضيائه والليل بظلامه أذهان الناس عبر العصور ، واهتموا بظاهرتي الخسوف والكسوف ومصادر الضوء بأشكالها والنيازك والبرق والصواعق ، وفسروا ذلك على وفق فلسفاتهم ومعتقداتهم ، وانتبهوا إلى ظاهرة الظل بمستوياته والظلام بأنواعه واجتهدوا في تفسيرها ووضع الإجابة للأسئلة المحيرة التي كانت تدور في أذهانهم.

إنَّ ثنائية الضوء والظل من أبرز الظواهر التي استرعت انتباه المسلمين ، جاء ذلك في حركة الشمس ومنازل القمر ، لتحديد مواقيت مضبوطة للعبادات ومنها الصلاة والصيام والحج عبر ظاهرتي الإشراق والظلام بتدرجاتها.

قال تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ

الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝ ﴾^(٧) ، وقال تعالى آمراً عباده المسلمين بصيام شهر رمضان : ﴿ فَمَنْ

شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ ﴾^(٨) ، والمقصود بالشهر هلال رمضان أول ولادته ووضوح رؤية

ضيائه ، وذكر الله سبحانه وتعالى الشمس والقمر كونهما من آياته ونعمه على عباده ، جاء ذلك في قوله

تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ۖ ﴾^(٩) ، والأمثلة كثيرة في نصوص قرآنية ذكرت

النجوم والكواكب بزيانتها ودلالاتها للمسافرين ، والنيازك والصواعق بمظاهرها الضوئية.

إنَّ القرآن الكريم مصدر العلم والثقافة الأول ومصدر العبادات والمعاملات للمسلمين منذ نزوله ، أثرى عقولهم بمفاهيم واضحة عبر ذكر ظاهرتي الضوء والظل وما يتعلق بهما ، ولم يقتصر على الأشياء المرئية عبر الدلالة الصريحة بل شمل ذلك الدلالة الإيحائية للنور والظلام ، التي تعني الإيمان

والكفر ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خِلْدُونَ ﴿٥٧﴾ ﴿١٠﴾.

ومن البديهي أن يكون للإنسان المسلم الذي نشأ في مجتمع متقف بتعاليم الإسلام واطلع على ذلك امتياز خاص بفهم معنى الضوء والظل وإلمام بذلك ، ويبدو أنَّ الشعراء بما أُوتُوا من ثقافة وامتلاك أدوات فنية وبما امتازوا به من أذواق رفيعة هم أكثر الناس إدراكاً وفهماً لظاهرتي الضوء والظل بما يجعلهم يوظفونها في أشعارهم بشكل امتاز بالروعة والبهاء ، ويتوقف ذلك على مهارة الشاعر في توظيف الظاهرتين ، واختيار الأضواء والظلال التي تتناسب وتشكيله الشعري وتتفق مع جوهرها ، بشكل يعين المتلقي على استحضار الرؤية البصرية ليهتدي إلى ملامح الصورة التي يشكل الضوء والظل أبرز ملامحها ، أو الصورة المشحونة بدلالات الضوء والظل بشكل إيحائي ، ويشارك الشاعر مشاعره وتجربته الشعرية التي " تستمد نسغ حياتها من وجود الشاعر الوجداني وحضوره الحسي وآفاقه التأملية في جو خاص يختلف كل الاختلاف عن الأجواء الاعتيادية لا في الشكل فقط بل في تكوينه كذلك " (١١).

لقد أدرك الشعراء أنَّ للضوء طاقة في الإشعاع وبث النور ، وإنَّ للظل طاقة فيما يوحي به من الأناقة والسحر والانشراح والشعور بالاستقرار ، بدلالة معاكسة للضوء بانسجام واضح وبلا ضدية ، وأغتتم الشعراء هذه الطاقات ووظفوها بما يناسب الفضاء الضوئي لأيٍ منهم بشكل يجعل المتلقي يفهم أساليبهم ويدرك أفكارهم عبر التأمل والإحساس.

إنَّ الشاعر المبدع لديه من المهارة ما يجعل تشكيله الشعري حاضنة خصبة لصوره الشعرية ، ومنها الصورة الضوئية ، وغالباً ما يوظف الشاعر طاقة الألوان في الصور الضوئية لارتباط الأضواء بالألوان ، فبدون الأضواء لا تتضح رؤية الألوان ، ويبدو أنَّ العلاقة بينهما تبدو أكثر وضوحاً مع اللون الأبيض ، ذلك اللون الذي يرمز إلى " الطهارة والنور والغبطة والفرح والنصر والسلام " (١٢).

وتكون العلاقة بين الظلمة واللون الأسود بدلالة تحددها الحالة النفسية للشاعر حال توظيفه هذا اللون في الصورة الضوئية ، واللون الأسود يدلُّ أحياناً على الحكمة والرزانة ، وهو " رمز للوقار والعظمة وعلو المكانة " (١٣) ، وهو ملبس علماء الدين ، ويدل في أحيان أخرى على اليأس والتشاؤم والكآبة ، وفي مثل هذه الحالة يرمز إلى " فقدان الضوء واللون وهو خير رمز للظلام ولعدم الطهر وللحزن " (١٤).

إنَّ الصورة الضوئية سبيل إلى تصوير الطبيعة بما يثير الإدهاش والاستبشار في النفوس ، وهذا ما بدا لي في الصورة الضوئية التي تجسد ثنائية الضوء والظل في شعر ظافر الحداد ، الذي وصف مظاهر الطبيعة بدقة ، وبشاعرية مكنته من رصد أعماق الظلال ، ومن توظيف القيم الضوئية في

صوره الفنية بما يثير النشوة في النفوس ، ويجلب إليها الانتشراح والراحة ، ويشعرها بالهدوء والطمأنينة.

المبحث الأول

الرمز والإيحاء الشعري في الصورة الضوئية

يمتاز الإنسان بقوة إدراكه الظواهر والأشكال بحاسة البصر التي ترصد ما يقع تحت الأنظار على سطح الأرض ، وما فوقها من ظواهر مرئية في السماء ، وهناك فرق بين الضياء والنور ، فالضياء ينبعث من مصدر يشع به والنور هو ما ينعكس من سطح وقع عليه الضوء ، قال تعالى : ﴿هُوَ

الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (١٥).

إن معرفة الفرق بين الضياء والنور في التسمية يصعب على كثير من الناس الذين لم يشغلوا أنفسهم بإدراك المفهوم الدقيق لكلا التسميتين ، فتراهم يقولون عن كل إشعاع يجعل المكان واضحاً ضوءاً ، أما المهتمون في البحث والدراسة في هذا الميدان يفرقون بينهما لإدراكهم ما يميز هذه الظاهرة عن الأخرى ، ويبدو أن الشعراء أدركوا ذلك الفرق أيضاً ، وعرفوا أن الضوء سبب في جلب أنظار المتلقين لإمعان التركيز في تشكيلاتهم الشعرية المتضمنة الصور الضوئية ، كما أنهم ضمّنوا تشكيلاتهم الشعرية قيمة لونية مباشرة أو غير مباشرة يبعثها الضوء ، وتأتي الدلالة على ظاهرتي الضوء والظل بالإيحاء الذي يأتي بما تحمله الكلمات من طاقات تساعد في إثراء التجربة الشعرية . إن إدراك ذلك يحتاج إلى استحضار الصورة البصرية لرصد الأضواء المتداخلة أحياناً في الصورة الفنية واستعادة التصورات بقدرة إبداعية ، وكلما كانت الصورة أكثر ألماً أوحى بدلالات الفرح والأنس والبشر ، ودلّت على معنى " يتجاوز الرؤية المادية للعين إلى رؤية أعمق داخل أحاسيس الإنسان يبرز الحقيقة الروحية له " (١٦) ، وهذا لا يعني أن الدلالة الإيجابية تقتصر على الأضواء وبأن الظلال تطمس الظاهرة الجمالية للصورة الفنية ، بل يعني أن الظلال تزيد هذه الصور بهاء وبأنها توحى بالراحة والحب والجمال ، وغالباً ما يجد الشاعر قيمة ضوئية في أعماق الظلال تكمل الصورة وتثريها عبر ثنائية الضوء والظل ، لأنهما " متكاملان متوحدان في الدلالة ، متآخيان في التعبير بنسب تتفاوت ، ورُبّ لمسة من لمسات الظل تغني لوحة من لوحات التصوير ، أو حزمة من الضوء تغني قصيدة غمرها الظلام ، ورُبّما كان الضوء والظل متعادلين في إبراز كنه الشعور في لوحة أو قصيدة ما " (١٧) ، ويأتي الإيحاء أحياناً في هذه الثنائية بما يفوق ما تشكله الصور ذات الألوان المتداخلة ، ويمكن البحث في ذلك تحت موضوعين هما ثنائية الضوء والظل ، والقيم غير المباشرة للضوء والظل.

المطلب الأول

ثنائية الضوء والظل

يدل الضوء على معانٍ خصبة ويرمز إلى الأمل وديمومة الحياة ، ويعطي الذهن زخماً دلاليّاً في التأويل ، يأتي ذلك بإيحائٍ خفي ، ويدلُّ الظلُّ على الشعور بالمجهول عبر كثافته وامتداد ظلمته ، ويرتبط الضوء والظل بعلاقة توافقية ، فقوة الضوء تزداد مع تدرج الظل في كثافته حتى تصل إلى الظلمة ، وحينها يتوهج الضوء بشكل أكثر . يرى دافنشي أنَّ الظلَّ ينشأ من شيئين مختلفين ، أولهما جسماني والثاني روحاني ويقصد بالجسماني الجسم المعتم ، والروحاني الضوء ، فيشترك كلُّ من الضوء والجسم في خلق الظلِّ^(١٨) ، وطالما أثارت هذه الثنائية المتكونة من اجتماع هذين الشيين المتناقضين انتباه الناس عبر الرصد والمراقبة لترتبط بالتعبير عن الحالة النفسية ، وطالما أثارت هذه الثنائية الدهشة في نفوس الشعراء ، وأوجدت في أذهانهم الأفكار التي تغني الصورة الفنية في التشكيل الشعري الذي ينظمه الشاعر بأسلوب يمتاز بالتوتر والإيحاء ، و " يظل الظلام والضياء من لوازم الطبيعة النفسية لأنَّ للنفس عالمها المزيج بين الظلام والضياء ، ومن هذا التأليف بين النقيضين يترعرع الحسُّ الشعري والعالم المليء بصراع النقااض "^(١٩) ، وعندها يحقق الشاعر قواعد التشكيل الشعري.

ويأتي التدرج الضوئي نتيجة لهذه الثنائية موضوعاً خصباً للشعراء يبدو فيه تأثير ملامح الزمان والمكان ، ليوظفوه في تشكيلاتهم الشعرية ويرسموا ملامح الصورة الفنية من مظاهر ، وتُعدُّ الطبيعة المصدر الأوفر للشعراء ، استمدوا منها موضوعاتهم.

إنَّ مظاهر الجمال الرئيسة بتظافر الضوء والظل في ثنائية وانسجام أثارت اهتمام ظافر الحداد فأكثر من وصفها بأسلوب يدل على شاعرية فذة وذوق رفيع ودقة نظر ، ومن ذلك وصفه غياب الشمس واحمرار الأفق وقت الأصيل ، مع ظهور الهلال في منظر غاية في الروعة ، عند مكان يمتاز بالأنس والبشر والإلفة ، بمائه الجاري ونسيمه العليل وأصوات الطيور الصادرة ، جاء ذلك في قوله^(٢٠) :

والشمس قد حوت المغارب شطرها	فرنت بعين الذهاب المنحسر
والجو من شفق الغروب مفرور	كحديقة خفت بورد أحمر
وبدا الهلال ليلتين كأنه	فتر حوى تفاحة من عنبر
والماء يبيد للنسيم تملقاً	فيسير بين تدرج وتكسر
والطير يطرب شجوها أغصانها	فتظل بين تمايل وتبخر
والليل يختلس النهار كغصبة	من آل حام خلف آل الأصفر

امتازت هذه اللوحة بروعة الوصف وتكونت من صور متلاحمة بانسجام ، تثير الدهشة في توظيف ثنائية الضوء والظل عند غياب الشمس وذهاب النور تدريجياً ليغطي الأفق لون ذهبي يزينه هلال ناصع البياض ، وتبدو الألوان المتداخلة بانسجام في منظر بهيج ثم يأتي الظلام ويغطي الفضاء فيبدو المكان بمنظره الحلمي والماء ترتج صفحته بحركة النسيم ليعكس أنواراً متأرجحة ، وتفوح رائحة الزهور المنعشة وتصدح الطيور بأصواتها ، إنَّ توظيف الضوء والظل جاء في طريقة محكمة زادها

التشبيه المتكرر بهاءً بطريقة مبتكرة وهو يصف الشفق الأحمر والهلال وقدم الليل ، وبدأت معالم الصورة الضوئية المتعاقبة بانسجام ، وكأنما أراد الشاعر أن يأخذ بالمتلقي إلى شواطئ الألفة ليشاركه تجربته الشعرية.

وتأتي ثنائية الضوء والظل في لوحة وصف الشاعر فيها موقد نارٍ يتألق جمره ثم يخمد عن رمادٍ يزيد المنظر إلفاً وجمالاً في انسجام بين الأضواء والظلال في مكان حلمي دافئ ، جاء ذلك في قوله^(٢١) :

كَأَنَّ جِيوشَ الفَحْمِ مِنْ فَوْقِ جَمْرِهِ وَقَدْ جُمِعَا فَاسْتُحْسِنَ الصِّدُّ بِالصِّدِّ
غَدَائِرُ خَوْدٍ فَرَّقَتْهَا وَقَدْ بَدَتْ عَلَى خَضَرٍ مِنْ تَحْتِهَا حُمْرُهُ الْخَدِّ
فَلَمَّا تَنَاهَى صِبْغُهُ خِلْتُ أَنَّهُ فُصُوصُ عَقِيقٍ أَوْ جَنَى زَهْرَةِ الْوَرْدِ
إِلَى أَنْ حَكَى بَعْدَ الْخُمُودِ رَمَادُهَا غُبَاراً مِنَ الْكَافُورِ فِي قَطْعِ النَّدِّ
جاءت هذه اللوحة تصف دالة اجتماعية في ذكر الموقد الذي يشيع في المكان الدفء والإلفة فضلاً عن المنظر الحالم الذي يجمع بين ثنائية الضوء والظل في اشتعال النار وتوقد الجمر ثم خموده وغلالة من نار ودخان بانسجام بين الأضواء والظلال ، جاء وصفها بتشبيه الفحم بصفائر الفتاة الحسنة ، والجمر بخدودها ، وبفصوص العقيق والزهر الأحمر ، وتشبيه الرماد بالطيب من الكافور والند ، وجاءت صور الجمال في أسلوبه بأدق الألفاظ المعبرة عن صور ضوئية توحى بالعطاء والتجدد وعمد إلى تكرار التشبيه ذلك الأسلوب البياني الذي " يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ولم يستغن أحدٌ منهم عنه " (٢٢).

وفي لوحة أخرى يصف فيها شاعرنا عدة مشاهد وقعت أمام ناظريه تمثل العطاء والحركة في صورة مركبة تنسجم فيها الأضواء والظلال في وصف البرد والغيم والرعد والبرق ، وكانون النار في يوم بارد جاء ذلك بأجمل وأرق الألفاظ الدالة على الذوق الرفيع ودقة الوصف والخيال الخصب ، في قوله^(٢٣) :

وَيَوْمَ بَرَدٍ عَقُودُهُ بَرَدٌ لَهَا سُلُوكٌ مِنْ هَيْدِبِ الْمَطَرِ
يَنْثَرُهُ الْجَوُّ ثُمَّ تَنْتَضِمُ مِنْهُ الْأَرْضُ فِي الْحَالِ كُلِّ مَنْتَشِرِ
فَهُوَ يَحَاكِي الثُّغُورَ فِي اللَّوْنِ وَاللَّطْفِ وَعَذْبِ الرُّضَابِ وَالْخَصْرِ
وَجَمْرُ كَانُونِنَا يَمِاثَلُهُ فَعَلَا بِمَا يَبْتُئُهُ مِنَ الشَّرَرِ
كَأَنَّ ذَاكَ الشَّرَارَ مِنْ ذَهَبٍ قُرَاضُهُ تَسْتَطِيرُ مِنْ نَقَرِ
وَالْغَيْمُ يَبْكِي وَالرَّعْدُ يَضْحَكُ وَالْبَرْقُ يَدِيمُ ابْتِسَامَ ذِي خَضَرِ
شغلت الأضواء والظلال مساحة واسعة في هذه اللوحة لمشاهد وظفها الشاعر في رسم ملامح الصور الفنية في وصفه يوماً بارداً تتساقط فيه حبات البرد وتتناثر على الأرض بلونها الأبيض المشرق الوضاء تحاكي ابتسامة الحسنات ، ويلجأ الناس في هذا اليوم إلى موقد النار للاستماع بدفئه ومنظره

الجميل والشرار يعلو لهب النار كما تتطاير فُراضة الذهب من يد صانع الحلي الذهبية أثناء العمل ،
ويضيء البرق أركان الفضاء الذي يدوي فيه الرعد مع زخات المطر الغزيرة ، ويبدو لي أنَّ كلمات
الشاعر توحى بعالم أليف أضاء أركانه بالإيحاء.

إنَّ الصور الضوئية المتلاحقة التي تنتظم فيها الأضواء والظلال في لون البرد وقاتمة الخيم
والشرار المتطاير من لهب الموقد مع كثافة الدخان ولون الرماد الهامد ، ولمعان البرق عبر الغيوم
المتراكمة تمثل ثنائيات غاية في الجمال للضوء والظل بتدرج ضوئي ، وظفها الشاعر بأسلوب التشبيه
المتكرر لتأتي الصور الضوئية المنسجمة معبرة عن منظر يوحي بالعطاء ويبعث في النفوس الطمأنينة
والراحة والهدوء.

المطلب الثاني

القيم غير المباشرة للضوء والظل

تمثل الطبيعة المصادر المحسوسة التي يتم اعتمادها في الوصف عند الشعراء ، فضلاً عن كونها
المعين الذي لا ينضب لخيالاتهم ليصوروا الحياة بما يتناسب ورائهم ، وجاء المشهد العياني للطبيعة في
سكونها وحركتها المتسارعة المقترنة بجمال المناظر المرئية وعبق الأرض وأريج الزهور والفضاء
الواسع ليمد المخيلة الشعرية لظافر الحداد بصور وظفها بأسلوب بعيد عن جمود الحركة باستخدامه لغة
شعرية اكتسبت قدرة على التعبير في استحضار عوالم الجمال المرئية والمتخيلة بطاقات من الدلالات
الإيحائية وشحنات من العواطف تثير الدهشة وتوقظ الشاعر وتجلب إلى النفوس البهجة والسرور ، إنَّ
" لكل تجربة شعرية ناحيتان : الأفكار، والعواطف والخواطر المجردة ، وهذه طبيعتها لا شعرية ، ثم
العملية الشعرية نفسها التي تقوم على وضع هذه الأفكار في قالب خاصة معتمدة على تكرار الوزن
والنغمة والقافية الموسيقية مع مزاجتها بتلك الأفكار والخيالات والعواطف " (٢٤).

إنَّ الالفاظ التي تدل على الضوء والظل بصورة مباشرة أو غير مباشرة ترسم ملامح الصور
الضوئية ، وتوحى بمعانٍ خصبة وشفافية عالية تحتاج إلى متلقٍ يمتاز بذكاء حاد وفطنة في استشعار
الجمال فيها.

وتبدو القيم غير المباشرة للضوء والظل في أبيات شاعرنا التي يصف فيها الروض وأزهاره
والغيث وماء المنهمر ، ومظاهر الجمال المنبثة في المكان في قوله (٢٥) :

منابتُ أزهارٍ يكرّرُ نشرُها	على القطرِ شُكراً ذائعاً ومحامدا
تَخطُّ يدُ الأنواءِ فيها صحائفاً	فينشدها راوي النسيم قصائد
قلبه ذاك الروض للغيث مادحاً	ولله ذاك الغيث للروض رافدا
كنوزٌ بدت لو لا دُبُولٌ يصيبُها	لأصبح ما عند الصيارفِ كاسدا
كأنَّ الأقاحي والبهارَ دراهمٌ	خلال دنانيرٍ تقابلُ ناقدا
وللسوسن المفتوح أبواقُ فضةٍ	تقابل من حمير الشقيق مطاردا

إنَّ الدلالة على الضوء والظل في هذه اللوحة أتت في قيم غير مباشرة في أغلبها ، عبر الألوان الزاهية في الزهور المتفتحة ونضارة الخضرة ، فيرى المتمعن فيها الأضواء برؤية حُلمية عبر إشراقة الأفاحي والسوسن بالبياض الناصع ، وتألّق البهار باللون الاصفر ، مع حمرة الشقيق ، وكأنَّ الناظر إلى هذه الروضة التي روتها مياه الغيث وداعبَتْها النسائم يرى الدراهم الفضية والدنانير الذهبية متألفة بين يديه في كرنفال ضوئي وجمال منظر بهيج يوحي بالحركة وتجدد الحياة ويخفي في طياته تدرجاً ضوئياً وظلالاً رقيقةً زادت المشهد بهاءً وحسناً.

وفي لوحة أخرى وصف فيها الشاعر منظراً تزيّنه أزهار الأفاحي والنجس التي تجلب الأنظار بإشراقها يأتي الإيحاء بالضوء والظل عبر ذكر النور المتفتح بظلاله اللطيفة المنعكسة على بساط أخضر ، جاء ذلك في قوله^(٢٦) :

فَكَأَنَّما زَهْرُ النَّبَاتِ قَلَانْدٌ نُثِرْتُ عَلَى صَفْحَاتِ بَسِطِ السَّنَدِسِ
وَالْوَرْدُ يَخْجُلُ حِينَ قَبْلَ خَدِّهِ تَغْرُ الْأَفَاحِي مِنْ عَيُونِ النَّرْجِسِ
في هذه اللوحة جاء الإيحاء بالأضواء والظلال عبر الألوان التي أشرقت في المكان وأضاءت دواخل النفوس وأسرت الأنظار المتمعنة في تفاصيل المشهد الجميل ، جاء ذلك بما ترمز إليه الألوان وظلالها بإيحاءات " تستجيب لتطلعات الذات الراغبة في الكشف عن طبقات الأعماق"^(٢٧).

وتأتي الكلمات توحى بالمعاني الواردة في موضوعات الأبيات الواردة في لوحة وصف فيها شاعرنا مرّج الحمّام الذي ضمّ حيزاً يلتهب ناراً ذات حرارة عالية يعلوها اللهب ويتصاعد منها الدخان تسخن المياه وتبعث في أرجاء الحمّام دفناً يريح النفوس ويجلب إليها المتعة والاسترخاء والراحة ، جاء ذلك في قوله^(٢٨) :

وَرَوْضٌ لَهُ مِنْ جِلْمِ الصَّخْرِ أَزْهَارُ خَصِيبٌ إِذَا مَا أُضْرِمَتْ تَحْتَهُ النَّارُ
تَجَنَّبَ قَرَبَ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ دَائِماً فَأَكْثَرُ مَا فِيهِ شَمُوسٌ وَأَقْمَارُ
تَوَلَّدَ فِيهِ مِنْ جَحِيمٍ وَجَنَّةٍ مَزَاجٌ لَتَعْدِيلِ الْمَزَاجَاتِ مُخْتَارُ
يبدو لي أنَّ المشاهد في هذه اللوحة اختلطت بحركة تعاقبية في حيّز تتوقد فيه النار ويتوهج فيه الجمر ويعلو اللهب ، وصفه الشاعر في نسيج شعري محكم أتى على ذكر البناء النامي للصور الموحية بدلالة القوة والحركة عبر الحرارة الشديدة ، التي تهيج المكان الدافئ وماء الاستحمام الذي يطهر الأبدان ويبعث فيها النشاط ، إنَّ المتلقّي الذي يمتاز بالانتباه واليقظة يدرك الحالة الدلالية للمفردات وتتحقق له المفاجئة ويعيش جو المتعة التي يلمسها في الإيحاء بالأضواء والظلال عبر ذكر الجمر واللهب والدخان وضيق الحيز الذي يشمل مكان الاشتعال.

لقد وَفَّقَ الشاعر في إيجاد عنصر التوافق بين النقااض في حرارة النار ومتعة الاستحمام في ذكر الجحيم والجنة ، ويبدو أنَّه كان واعياً لتفاصيل المشهد حيث أمدّه ذوقه الرفيع بأسباب اختيار الألفاظ

ورسم ملاح الصور الضوئية الجميلة ، " فالشاعر حين يكون هادئاً الشعور ، متزن المزاج تشي صورته ببقطة حسية وذوق جمالي رفيع " (٢٩).

المبحث الثاني

جمال الصورة الضوئية

يشكل الضوء مادة أساسية في ملامح الصورة الفنية في الشعر يضيء محتواها ويزيدها خصوبة وبهاءً ، فضلاً عن الدلالات المعنوية ، يأتي ذلك بتوالي الصور التي تنمو وتتكامل في مكانٍ معطاء يتسم بمباهج الجمال ، ويتيح مثل هذا الظرف الملائم للشاعر رصد جزئيات المناظر المرئية ووصفها في صور تتباين بين شاعر وآخر بسبب اختلاف الثقافات الرؤى بينهم.

إنَّ الطبيعة الجميلة ومظاهر العمران والرياض والبساتين والأنهار في البيئة التي عاش فيها ظافر الحداد أمدته بمناظر راقية لناظره فوصفها وصفاً رائعاً بفضل امتلاكه شاعرية ساعدته في التدقيق في التفاصيل وأجزاء المشاهد وشملت الفضاء الضوئي المشاهد بما في ذلك من حركة وسكون في الأضواء والظلال ، وأتى ذلك في موضوعات جمال الصورة الضوئية ضمن المطالب التالية :

المطلب الأول

شعرية البصر

يظهر أثر الحواس واضحاً في رصد ملامح الأشياء وتحديد أبعادها تنصدها حاسة البصر في دورها المباشر في استشراف المرئيات والتركيز في أشكالها وأبعادها ، وهي " أدق الحواس وأكملها وأفتحها ، فالبصر يمدُّ العقل بأكبر قدرٍ ممكن من الأفكار وأكثرها تنوعاً " (٣٠).

وحاسة البصر لها الدور الأكبر في رسم ملامح الصورة الضوئية في الشعر ، ويأتي شعر ظافر الحداد عبر ألفاظ استخدم فيها تقنيات الأضواء والظلال في وصفه مظاهر الطبيعة والعمران والرياض والمياه بتشكيلات شعرية امتازت برشاقة الألفاظ ورقتها ، فضلاً عن دقتها في رسم أبعاد الصورة الفنية. إن نباهة شاعرنا في رصد المرئيات ، وذوقه الرفيع في استشعار ملامح الأشياء وأبعاد الأشكال ودقة ملاحظته البصرية مكنته من الاهتداء إلى الظاهرة المرئية ، ومعرفة الارتباط الوثيق بين الألوان والأضواء ، ف " لو لا الضوء لمات اللون ولانعدمت حيوية النور ، فالنور هو اللون ، واللون هو النور " (٣١).

ولنتلمس قوة الرصد التي وصلت إلى أدق تفاصيل المشهد جمالاً في لوحة لشاعرنا ، تضي عليها الأضواء المتألقة حسناً في خضرة الرياض وإشراقة الزهور ، في مكان حلمي أليف يسر الناظرين وتطيب فيه النفوس وتزداد شعوراً بالسعادة والهناء ، في قوله (٣٢) :

في ظلال الأيك بين الكُثبِ
يُفهمُ السَّمْعُ وإن لم يُعربِ

هل تغنينا حمامات الحمى
بغناء أعجمي لفظه

يُطْرِبُ السامِعَ حَتَّى أَنَّهُ
وَكأنَّ الرَوْضَ فِيهِ غادَةٌ
وَالأَقاحي كَلالٍ نُظِمَتْ
وَبَهَّارٌ باهَرٌ هَيْئَتُهُ
كَالدنانيرِ بَدَتْ أَلوانُهُ

يَقْتَدِي فِيهِ بِمُلادِ القُضْبِ
تَتَهادى بِالثِيابِ القُشْبِ
فِي حواشي كوكِبٍ مِنْ ذَهَبِ
مِثْلُ جِرمِ الشَّمسِ عِنْدَ المِغْرِبِ
تَعْدُمُ الإِعدامُ كَفُّ الثُّرْبِ

في هذه اللوحة جاء النص الشعري ملتئماً وبدت صورته توحى بقوة الملاحظة والتخيل ، نقلت إلينا إحساس الشاعر وعبرت عن عاطفته بألفاظ ربطت بين الألوان والأضواء في وصف مشهد جلب نظر الشاعر بأضوائه وظلاله وأفياء الشجر وخضرة الروضة اليانعة وتفتح الأقاحي والبحار ، فانسجمت الألوان الزاهية المشرقة بضياءها الأبيض والأصفر تحاكي اللآلئ والذهب وقرص الشمس عند المغيب ، جاء ذلك في توظيف الأدوات الفنية بوعي وإدراكٍ فريد في خلق عالم روحي بديل عن عالم الواقع. وفي لوحة أخرى عبّر الشاعر فيها عن معاني الأنس ، جاءت العين مرآة للروح ، وبدت حاسة البصر متيقظة في رصد معالم الجمال المشرقة في يوم تساقطت فيه حبات البرد من السحاب ، ونثرتها الرياح على الأرض في منظر غاية في الحسن ، وكان الشاعر واعياً في انتقاء الألفاظ الرقيقة التي جاءت في نسيج الشعر لتعبر عن الظاهرة الضوئية في قوله (٣٣) :

وَيَوْمٌ ضاحِكٌ يَبْكِي
إِذا انْهَمَلَتْ سَحائِبُهُ
يَشوبُ بِبرْدِهِ بَرْدًا
كَأنَّ الرِّيحَ تَنْثُرُهُ

ضَعِيفٌ مَعاقِدِ السَّالِكِ
وَدَمِعي خِلْتُهُ المَحْكي
كَمِيسٍ مَن حوى مِلْكي
عَلَى الأَرْضينَ فِي وَشْكِ

امتازت حاسة البصر في استشراف المشهد الجميل بتفاصيله الدقيقة في يوم أضاء فضاءه انعكاس الأضواء من الغيث والبرد ، جاء ذلك في صورة فنية أطرها الشاعر بهالة من الأضواء والظلال ، وجاءت ملامحها معبرة عن صوت الاعماق ، وقد وظف الشاعر الأفعال في لغة شعرية أعطت اللوحة صفة الحركة والحيوية ، وبدت الأضواء وهي توقظ في ذاكرته طيف الحبيبة بابتسامتها الوضاعة. وتأتي فاعلية الرصد بدقة النظر في تفاصيل منظر الكانون بناره المتوقدة من فحمه المشتعل ورماده المتراكم تحت الجمر والدفع والراحة في مجلس امتاز بالإلفة والسرور ، جاء ذلك في قوله (٣٤) :

أَنْظُرُ إِلى ما ضُمِّنَ
هَذا يَزِيدُ وَذا يَبِيدُ
فَكَأَنَّمَا رُسُلُ الوِصايا
أَوْ كَالعُقودِ تَضُمَّنَّ

الكَانُونُ مِنْ فَحْمٍ وَجَمْرِ
كَمَا أَنْطَوَى لَيْلاً بِفَجْرِ
لِ تَوَاتَرَتْ بِزَوَالِ فَجْرِ
نوعينِ مِنْ سَبِجٍ وَشَذَرِ

أو جمرة الوجنات لا
يلجأ إلى الكانون في
ح شقيفها في آس شعر
كانون مفتقر ومثر
فيه من نمط وستر

في هذا المشهد لم يقتصر دور البصر على رصد الجزئيات بل شمل الربط بينها ليعين ذهن على تصور أشكال الأشياء المرئية ثم يقوم الشاعر بوصفها بألفاظ تدل على المعنى المتخيل بأسلوب التشبيه في توظيف ظاهرتي الضوء والظل بمهارة وإحساس مرهف ، فبدت له المناظر المتقدمة والقائمة تحاكي عقوداً تنتظم بحبات الخرز الأحمر والأسود وتذكره بثنائية الليل والنهار ، وتعيد إلى ذاكرته طيف الحبيبة بمحياها الجميل وحمرة خديها وشعرها الأسود الفاحم.

ويبدو أن نفس الشاعر تميل إلى مجالس الأنس والسمر وتألّفها كما يتضح في أبياته التي ذكر فيها مجلساً في بناء متقن الصناعة عند بركة يصب فيها نهر صافي الماء تنتظم الأشجار على جانبيه تزهو بأغصانها المزينة بالأزهار ذات النور المتألق في أغصانها الوارفة الظلال ، جاء ذلك في قوله (٣٥):

له بياض يعُض الطرف لامعهُ
كأنه خلّ الأغصان لؤلؤة
قَالَعَيْنُ تَلَحُّظُ مِنْهُ الْحُسْنُ فِي الْمَلْحِ
نَظْمُ الزُّمُرْدِ فِيهِ غَيْرُ مُنْفَسِحِ
كَأَنَّما النهر فيه سيف مرتعش
يرؤمهُ بين مقبوض ومطرح
يلقي إلى البركة الغناء فائضة
ماء يشف شفيف الخمر في القدح

امتازت هذه اللوحة بوصف هذا المكان العامر بما يزينه من انسجام اللون الأبيض مع الأسود ، فضلاً عن المناظر الساكنة والمتحركة وأمواج النهر المتكسرة والأشجار الزاهية بأزهارها بفضل دقة النظر في الجزئيات المكملّة للمشهد ، وجاء دور الخيال الخصب في رصد ثنائية الأضواء والظلال ، واعتمد الشاعر أسلوب التشبيه الذي زاد النص حسناً ودقة تعبير.

المطلب الثاني

الفضاء الضوئي

أتاحت المناظر الجميلة وما حولها فضاءً واسعاً أمدّ خيال ظافر الحداد بصور تداعت على وعيه فوظفها بأسلوب امتاز بالإدهاش والغرابة ، ويبدو أن شاعرنا " ميال إلى التعبير عن العوالم الشعورية المجردة بطريقة تجعله يستثمر مدركات العالم وأشياءه الحسية للقيام بمهمة الأداء وذلك بإعادة تشكيلها وفق ما يتصوره من معانٍ ودلالات تعجز اللغة المباشرة عن الإفصاح عنه " (٣٦) ، لذلك فإن الصورة في شعره تمتاز بالعطاء الفني بفضل الأضواء والظلال والألوان الزاهية ، ومن المناظر التي وصفها روضة جميلة بالخرصة والأزهار تتجاوب في فضائها أصوات الطيور لتملأ المكان وما حوله أنساً وفرحاً ، جاء ذلك في قوله (٣٧) :

وَلِلنَّسِيمِ الْعَلِيلِ الرُّطْبِ وَسُوسَةٌ
وَالْوُرُقُ مِنْ خَلَلِ الْأَغْصَانِ مُسَمَّعَةٌ
وَالرَّوْضُ يَنْشُرُ مِنْ نَوَّارِهِ خُلَلاً
وَالْأَقْحَوَانَةُ تَحْكِي ثَغَرَ غَانِيَةٍ
فِيهِنَّ كَالسَّرِّ بَيْنَ الرَّفَقِ وَالصَّخْبِ
طَوَّراً غِنَاءً وَطَوَّراً نَحْوَ مُنْتَحَبِ
مِمَّا تَحْوُكُ يَدُ الْأَنْوَاءِ وَالسُّخْبِ
تَبَسَّمَتْ فِيهِ مِنْ عُجْبٍ وَمِنْ عَجَبِ
إِنَّ الْمَتَمَعْنَ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ يَجِدُ حُضُوراً وَاضِحاً لِلْأَضْوَاءِ وَالظُّلَالِ ، يَعْطِيهَا دِيْمُومَةً وَوَضُوحاً ،
عبر إشراف العناصر المكمل للصورة الضوئية المركبة المتألفة العناصر ، أضاءت المكان وأشرقت
في فضاءها بنهارها الذي يكشف عن مظاهر الحياة والبشر في روضة يمدُّها الغيث بقطر ناصع البياض ،
أضفت عليه ظلال الغيوم منظرًا حالماً يتواصل مع جمال الموجودات التي وصفها بأسلوب التشبيه
المتكرر لتكتمل الصورة الجميلة بفضائها الرحب الواسع وآفاقه التي تغري البصر لاستشراق عناصر
غير مرئية فيها إحياء بالجمال والدهشة.

وفي لوحة أخرى وصف شاعرنا روضة أفصحت مظاهرها عن جمال رائع يكتمل بتواصل مع
الأفق الرحب والفضاء الفسيح ، جاء ذلك في قوله^(٣٨) :

وَلِلصَّبَا خَلَلِ الْأَغْصَانِ وَسُوسَةٌ
وَالرَّوْضُ يَبْعَثُ مَسْكَاً مِنْ نَوَافِجِهِ
وَقَدْ تَبَسَّمَ نَوْرٌ مِنْ كَمَائِمِهِ
وَقَدْ تَبَدَّدَتْ دَنَانِيرُ الْبَهَارِ عَلَى الْـ
كَالصَّبِّ لِلْحَبِّ يَشْكُوهُ وَيُعْتَبُهُ
وَالطَّلُ يَفْتَقُهُ وَالسَّرِيحُ تَجْلِبُهُ
فَلَاخَ فُضْيَةِ الزَّاهِي وَمُذْهَبُهُ
كَتَابٍ تَطْرَفُ رَائِيهَا وَتُعْجَبُهُ
لَيْلٌ وَحَانَ مِنْ صَيْدٍ تَوَثَّبُهُ
صُفْرٌ كَنَاطِرَتِي لَيْثٌ تَكْنَفُهُ

إِنَّ الصُّورَةَ الْفَنِيَّةَ الَّتِي رَسَمَ مَلَامَحُهَا الشَّاعِرُ بِالْأَضْوَاءِ وَالظُّلَالِ وَعُنَاوَرِ الْجَمَالِ الْآخَرَى
جَاءَتْ مَعْبَرَةً عَنْ مَنْظَرٍ بَدَأَ مِنَ الرُّوْضَةِ وَالْأَفْقِ الْمَحِيطِ بِهَا ثُمَّ الْفَضَاءِ الْحَالِمِ الَّذِي أَضْفَى عَلَى الْمَكَانِ
حَسَنًا وَبَهَاءً ، وَجَاءَ ضِيَاءُ الْآفَاقِ مَعَ إِشْرَاقِ الزُّهُورِ بِأَلْوَانِهَا لِتَهَيَّئَ لِلنَّازِلِ مَجَالاً أَوْسَعَ لِلْأَنْسِ وَمَسَاحَةً
رَحْبَةً لِلْبَصَرِ لَاسْتَشْرِفَ الْبَعْدَ الْمَتْرَامِي أَمَامَ الْأَنْظَارِ ، وَيَبْدُو أَنَّ الصُّورَ انْتَالَتْ عَلَى نَظَرِيهِ وَتَمَثَّلَتْ ذَهْنَهُ
وَوَصَفَتْ بِتَشْبِيهَاتٍ رَائِعَةٍ تَعْهَدُهَا خِيَالُهُ الْخَصْبُ لِتَأْتِي هَذِهِ الصُّورُ مُعْبَرَةً عَنِ الْحَرَكَةِ وَالتَّجَدُّدِ لَاسِيْمَا
الْبَيْتِ الْآخِرِ بِالْفَافِظِ رَقِيقَةٍ وَلُغَةٍ شَعْرِيَّةٍ زَادَتْهَا ظَاهِرَةُ التَّدْوِيرِ نَغْمًا وَإِيقَاعًا جَمِيلًا ، وَلِلتَّدْوِيرِ فِي نَظَرِ
نَازِكِ الْمَلَائِكَةِ " فَائِدَةٌ شَعْرِيَّةٌ وَلَيْسَ مَجْرَدُ اضْطِرَارٍ يُلْجَأُ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ ، ذَلِكَ أَنَّهُ يَسْبِغُ عَلَى الْبَيْتِ غَنَائِيَةً
وَلِيُونَةً لِأَنَّهُ يَمُدُّهُ وَيَطِيلُ نَغْمَاتِهِ " ^(٣٩).

وَأَجْدُ الْحَالَةَ ذَاتَهَا فِي لَوْحَةٍ أُخْرَى وَصَفَ الشَّاعِرُ فِيهَا مَنْظَرَ مُشَابِهًا لِمَا سَبَقَ وَأَبْدَعَ فِيهِ ، ذَاكِرًا
مَعَالِمَ الْجَمَالِ وَالْفَضَاءِ الرَّحْبِ وَسَعَةِ الْمَكَانِ الْأَلْيَفِ ، جَاءَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ^(٤٠) :

كَأَنَّ الْأَقَاحِي وَالْبَهَارَ دَرَاهِمَ
وَلِلْسُوسِ الْمَفْتُوحِ أَبْوَاقُ فِضَةٍ
قَلَمٌ أَرَّ جَمْرًا قَبْلَهُ مُتَلَهِّبًا
خِلَالَ دَنَانِيرٍ تَقَابُلُ نَاقِدًا
تُقَابِلُ مِنْ حُمْرِ الشَّقِيقِ مَطَارِدًا
إِذَا لَمَسَتْهُ الْكَفُّ أَلْفَتْهُ بَارِدًا

وَأِنْ نَثَرْتُ أَوْرَاقَهُ الرِّيحُ خَلَّتْهَا قصاصة حُمِرِ اللَّادِ صِيغَتْ رَفَائِدَا
شَنُوفٌ عَقِيقٌ صِيغَ مِنْ سَبِجٍ لَهَا معاليقُ ما باشرْنَ فيها معاقدا
تمثل هذه الأبيات لوحة شعرية تصف معالم الفضاء المشرق والمكان الأليف الذي يتوشح بأنوار
الأزهار المتفتحة من الاقاحي والبهار والسوسن الفضية والذهبية أعطت الصورة الضوئية إشراقة
وانسجاماً تدعو المتلقي للاستئناس بمظاهر جمال الأزهار التي تحاكي الجمر الملتهب وشرائط الحرير
الأحمر والأقراط المحلاة بالفصوص السوداء ، وتبدو الصورة الضوئية وهي " تنطلق بسرعة الحركة ،
وتتضمن قدراً لا يُستهانُ به من التلوين والمزج إلى جانب التفصيل في الصفات ، ممّا يدعو إلى التأمل
وطول النظر "(٤١).

إنَّ الصور المركبة المتكاملة التي أَضَفَتْ عليها ظاهرتا الأضواء والظلال إشراقاً وجمالاً
استوعبت معالم الجمال لدى شاعرنا في أمكنةٍ حالمَةٍ وَفُضَاءَاتٍ رحبة وبينة أليفة تجلب إلى النفوس
الأنس والسرور.

المطلب الثالث

الحركة والسكون في الضوء والظل

يخضع الشاعر المظاهر المرئية التي يريد وصفها للمعايير الفنية الجمالية ، ويحررها من
المقاييس الدقيقة لإبعاد الأشياء والمكان إرضاءً لنوازع نفسه وانسجاماً مع مشاعره التي تعبر عن صوت
الأعماق.

ويمتاز ظافر الحداد بامتلاك روح شفافة تستجيب لدواعي الشعر ، لذلك تجده يرصد الحركة
والسكون في ظاهرتي الأضواء والظلال ليعبر عن الشعور المتنامي في نفسه.

إنَّ الأضواء المشرقة والظلال الراقصة تمد الشاعر بمناظر جميلة وَبُعْدٍ حركي وتوقظ فيه
الإحساس وتحفز شاعريته فيختار ألفاظاً مناسبة للغة الشعرية تختزن طاقة في التعبير عن المعاني ،
ولا يقتصر ذلك على التركيز على إشراقة لون بعينه بل يشمل ذلك التدرج اللوني في اللون الواحد الذي
يعكس تقلبات ضوئية بين السطوع والخفوت ، تضيء أركان الصورة الفنية التي يوطرها الشاعر بشكل
فني ، و" هي نتاج تتعاون فيه كل الحواس وكل الملكات ، وإنَّها بمثابة الإلهام يأتي نتيجة قراءة الشاعر
ومشاهداته وتأملاته ومعاناته ، إلى جانب قوة ذاكرته وسعة خياله وعمق تفكيره "(٤٢).

إنَّ الخصائص الفنية لظاهرتي الأضواء والظلال في الحركة والسكون كانت حاضرة في وعي
شاعرنا فوظفها في شعره وأجاد في ذلك عبر رصده الآفاق الرحبة في نظرة فاحصة وذوق رفيع في
اختيار العبارات الموحية بالمعاني الخصب ، وتبدو ملامح الحركة والسكون في ظاهرتي الأضواء
والظلال في أبيات للشاعر يصف فيها بركة جميلة يصبُّ الماء فيها جدولٌ تتكسر أمواجه وتعكس أضواءً
تجلب الأنظار إلى جانب ظلال شفافة ، يزين الزهر جوانب البركة والجدول بنورها الساطع وعبيرها
الذي يملأ المكان ، جاء ذلك في قوله(٤٣) :

وفي البركة الغناء للطرف مسرّح
يُبَلِّغُنَا عَنْ زَهْرِهَا وَافِدُ الصَّبَا
إِذَا جَمَشَ الْغَدْرَانِ وَاهِي نَسِيمِهِ
وَيَنْسَلُ فِي سَاحَاتِهَا كُلُّ جَدُولٍ
نَهَى مَا انطوى مِنْ جَفْنِهِ عَنْ مَآبِهِ
سَلاماً تَوَلَّى الْمِسْكَ رَدَّ جَوَابِهِ
حَكَتْ زَرْدًا فُضَّتْ أَعَالِي عِبَابِهِ
كَمَا سُلَّ مَطَرُورُ الشَّبَا مِنْ قَرَابِهِ
تبدو شاعرية ظافر الحداد في هذه الأبيات عبر دقة نظره في تفاصيل المشهد ، وكانت البركة
مركز التقاء الأنظار بصفتها التي عكست أشعة شمس الصباح ، كما ذكر الشاعر نور الزهر وعطره
الفواح وحركة ماء الجدول وأضواءه الراقصة ، بطاقة إحياء ذي بُعد حركي ، إلى جانب شفافية الرؤية
اللونية في ظاهرتي الأضواء والظلال ، وبدا له ماء الجدول كسيف سلّ من قرابه ، في مشهد يجلب
السرور والنشوة والهدوء والراحة إلى النفوس ، ويدعوها إلى الاستجمام والتنزه مع استنشاق أريج
الزهور وعبق الأرض المرتوية بالمياه.

وفي لوحة أخرى وصف فيها شاعرنا منظراً مقارباً للمشهد السابق في مظاهر جماله ، تتشابه
رؤى الشاعر في ذكر التفاصيل ، وهو يذكر منظر الخليج وفضاءه الجميل في الاسكندرية التي طالما
اشتاقَتْ نفسه إليها ، جاء ذلك في قوله^(٤٤) :

فَيَا حَبْذا ذَاكَ الْخَلِيجُ الَّذِي بَدَا
وَقَدْ رَاقَ لِمَا رَقَّ عَذْبُ زَلَالِهِ
تَرَى مِنْهُ تَحْتَ الرِّيحِ دِرْعاً وَجَوْشِناً
كَأَنَّ الصَّبَا لَمَّا أَثَارَتْ حَبَابَهُ
مِنْ الْحُسْنِ مَا يُهْلِي عَنِ الشَّرْبِ وَارِداً
فَأَصْبَحَ مَلَأَنَّ الْمَوَارِدَ زَائِداً
وَسَيْفاً بِلَا غَمَدٍ إِذَا كَانَ رَاكِداً
تَمَرُّ عَلَى سَيْفٍ حَدِيدٍ مَبَارِداً
إنَّ شاعرنا امتاز بشاعرية في مستوى استطاع عبره رصد حركة الأضواء والظلال في صورها
المتداخلة في عناصر الطبيعة التي تحتضن الخليج ، وإن لم يذكر بعضها ، في أنوارها الساطعة وأفائها
الحالمة ، وتجدد حركتها بفعل التحول المتلاحق لضوء الشمس وحركة النسيم ، وما تحدث من أثر في
الماء تمثل حياةً وموتاً للضوء في آنٍ واحدٍ ، بتكسر الشعاع ، فتتجه الأنظار نحو أعماق الخليج بأسراره
المحجوبة عن الأنظار ، لتمدّ الصورة بفيضٍ من العطاء يثريها بموجوداتٍ ثابتة ومتحركة ، " وهنا نجدُ
أنفسنا بإزاء لعبة التكامل ما بين قطبي الداخل والخارج ، الداخل برويئته والخارج بعناصره التي
تخضعها الذات الشعرية لتشكيلاتها الطبيعية التجريبية الحلمية "^(٤٥).

إنَّ تدرج الأضواء بين السطوع والخفوت ، والظلال بين التلاشي والقتامة تمثل حركة وسكوناً
بانسجام وتوافق يزيد الصورة الضوئية حركة وحياة وبهاءً.

الخاتمة

سأذكر في أدناه النتائج التي توصلت إليها بشيءٍ من الدقة والتركيز :
١- إنَّ مصادر الظاهرة الضوئية والظلال التي جاءت في شعر ظافر الحداد كانت متنوعة ، جُلُّها من
مظاهر الطبيعة وبعض المرئيات ، وشملت أيضاً مصادر أخرى ذات دلالات إيحائية للضوء والظل.

- ٢- لم يقتصر مفهوم الضوء والظل على دلالاته الحسية والفيزيائية ، بل شمل دلالات أخرى تتعلق بالفرح والحزن ، ووضوح الرؤية وتشتيتها.
- ٣- يؤدي تأويل مفهوم الأضواء والظلال إلى استنتاج معانٍ خصبة ، تثري النصوص الشعرية ، وتوحي بالجمال والعطاء ، وتبعث في النفوس الطمأنينة والراحة والهدوء.
- ٤- انتقى الشاعر ألفاظه في لغته الشعرية بشكل جعلها تكتسب قدرة على التعبير في استحضار عوالم الجمال المرئية والمتخيلة في ظاهرتي الأضواء والظلال ، وطاقت في الدلالات التي تثير الدهشة وتوقظ المشاعر ، وتعبر عن العواطف والخواطر.
- ٥- وظف الشاعر الألوان الزاهية بطاقة تشف عن الأضواء الناصعة التي أعطت التشكيل الشعري صورته الضوئية المعبرة عن موضوعاتها ، عبر الأضواء والظلال الثابتة والمتحركة.
- ٦- تعامل الشاعر مع ظاهرتي الأضواء والظلال بنظرة ثاقبة ودقة نظر وقوة بصيرة نافذة ، في وصف مظاهر الطبيعة الجميلة ، والمناظر الحاملة والفضاءات الواسعة.
- ٧- يبدو لي أن الشاعر وَفَّق في إيجاد عناصر التوافق بين النقيض في توظيف الأضواء والظلال.
- ٨- أعطى الشاعر اهتماماً واضحاً للتدرج اللوني ضمن اللون الواحد ، الذي يوحي بتجدد الحياة وديمومة الأحداث وتسارعها ، وتعاقب المشاهد الجميلة.
- ٩- وظف الشاعر ثنائية الأضواء والظلال في رسم صورة فنية غاية في الروعة والجمال ، تستوعب الموضوعات وتعبر عما يجول في خاطره.
- ١٠- انطلق الشاعر في وصف ظاهرتي الأضواء والظلال من أمكنة تمثل نقطة التقاء الأنظار ، ومركز إشعاع الجمال ، لتضفي على ما حولها من مشاهد إشراقاً يسر الناظرين ، كما في وصف البرك والجداول والرياح وأغصان الشجر.
- ١١- اعتمد الشاعر أسلوب التشبيه ليقرب إلى المتلقي المعنى المراد ، ويصف له المشاهد التي تقع من نفسه موقعاً حسناً ، يجلب إليها السرور والأنس والراحة.
- ١٢- جاءت الإيقاعات في الموسيقى الداخلية والخارجية بما يتناسب وحركة الأضواء والظلال ، وإشراق الأزهار والماء ، وحبات البرد ، وأدى التدوير وظيفته في غنائية اللغة الشعرية وليونتها وإطالة النغم.

هوامش البحث

- (١) معجم الأدباء ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ياقوت الحموي : ٤ / ٣٥٠.
- (٢) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة : ضوء.
- (٣) مبادئ الرسم ، محي الدين طالو : ٤٦.
- (٤) لسان العرب ، مادة : ظلل.
- (٥) القيم التشكيلية والدرامية للضوء والظل ، شكري عبد الوهاب : ٤٤.
- (٦) الأنعام : ٧٦ ، وينظر : الأنعام : ٧٧ - ٧٨.
- (٧) الإسراء : ٧٨.
- (٨) البقرة : ١٨٥.
- (٩) يونس : ٥ ، وينظر : يس : ٤٠ ، لقمان : ٢٩ ، الرحمن : ٥ ، نوح : ١٦ ، النبا : ١٣ - ١٤.
- (١٠) البقرة : ٢٥٧.
- (١١) الطريق والحدود ، مقالات في الأدب والمسرح والفن ، يوسف عبد المسيح ثروت : ٢٧٨.
- (١٢) الرسم واللون ، محي الدين طالو : ١٧١.
- (١٣) اللون في الشعر العربي القديم ، زينب عبد العزيز العمري : ١٩.

- (١٤) اللون ، محمد يوسف همام : ٨ .
 (١٥) يونس : ٥ ، وينظر : نوح : ١٦ ، النبأ : ١٣ .
 (١٦) فن الضوء : ماهر راضي : ٢٩ .
 (١٧) الضوء والظل بين فني الشعر والتصوير ، زُلى عدنان الكيال : ٣٢ .
 (١٨) ينظر : نظرية التصوير ، ليوناردو دافنشي ، ترجمة : عادل السيلاوي : ٣١٥ .
 (١٩) السيميوطيقا والعنونة ، د. جميل حمداوي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس والعشرون ، الكويت ، ١٩٧٧ : ٧٩ .
 (٢٠) ديوان ظافر الحداد ، تحقيق : د. حسين نصار : ١٣١ .
 (٢١) ديوانه : ٦١ .
 (٢٢) كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر ، أبو هلال العسكري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم : ٢٤٩ .
 (٢٣) ديوانه : ١٣٤ .
 (٢٤) النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال : ٣٨٤ .
 (٢٥) ديوانه : ٦٥ .
 (٢٦) ديوانه : ١٦٥ .
 (٢٧) رمزية الألوان في الشعر المأتمى ، د. عبد السلام المساوي ، مجلة عمان ، العدد ١٠٨ ، حزيران ، ٢٠٠٤ : ٣٥ .
 (٢٨) ديوانه : ٩٨ .
 (٢٩) المدخل إلى نظرية النقد النفسي – سيكولوجية الصورة الشعرية نموذجاً - زين العابدين المختاري : ٨١ .
 (٣٠) تمهيد في النقد الحديث ، روز غريب : ٢٢ .
 (٣١) الضوء واللون ، بحث علمي وجمالي ، فارس متري ظاهر : ٨ .
 (٣٢) ديوانه : ٤٠ .
 (٣٣) ديوانه : ٤٣ .
 (٣٤) ديوانه : ١٣٥ .
 (٣٥) ديوانه : ٨١ .
 (٣٦) البنيات الدالة في شعر أمل دنقل ، عبد السلام المساوي : ٩٢ .
 (٣٧) ديوانه : ١٩ .
 (٣٨) ديوانه : ٦٥ .
 (٣٩) قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة : ١١٤ .
 (٤٠) ديوانه : ٩٥ .
 (٤١) وصف الحيوان في الشعر الاندلسي ، (عصر الطوائف والمرابطين) ، د. حازم عبد الله خضر : ٨٥ - ٨٦ .
 (٤٢) الصورة في شعر بشار بن برد ، د. عبد الفتاح نافع : ٩٩ .
 (٤٣) ديوانه : ٤٨ .
 (٤٤) ديوانه : ٩٤ .
 (٤٥) دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر ، قادة دقاق : ٢٩٧ .

Sources and references

The Holy Quran.

1. The Significant Structures in the Poetry of Amal Dunqul, Abd al-Salam al-Masawi, Arab Writers Union Publications, Damascus, 1994.
2. An Introduction to Modern Criticism, Rose Gharib, Dar Al-Kashouf, Beirut, 1st Edition, 1971.
3. The Significance of Medina in Contemporary Poetic Discourse, Leaders of Dakkak, Publications of the Arab Writers Union, Damascus, 2001.
4. The Office of Zafer Al-Haddad, investigation by: Dr. Hussein Nassar, Misr Press, Cairo, 1969.
5. Painting and color, Mohi Eddin Talo, Atlas Library, Damascus, 1961.
6. The image in the poetry of Bashar bin Barad, d. Abdel Fattah Nafeh, Dar Al-Fikr, Amman, 1st Edition, 1983.

7. Light and Shadow, a scientific and aesthetic research, Faris Metri Zahir, Dar Al-Qalam, Beirut, 1st Edition, 1979.
8. Light and Shadow between the Technician of Poetry and Photography, Rola Adnan Al-Kayyal, Ministry of Culture, Syrian General Book Organization, Damascus, 1st Edition, 2011.
9. The Road and the Borders, Articles on Literature, Theater and Art, Yusef Abd al-Masih Tharwat, Iraqi Ministry of Information Publications, Baghdad, 1977.
10. The Art of Light, Maher Rady, The Color Labs Association, Cairo, 2004.
11. Issues of Contemporary Poetry, Nazik al-Malaika, House of Science for the Millions, Beirut, 5th Edition, 1978.
12. Plastic and Dramatic Values of Light and Shadow, Shukri Abdel Wahab, Horse International Foundation, Alexandria, (D.T.).
13. The Book of the Two Industries, Writing and Poetry, Saeed bin Yahya bin Mahran, Abu Hilal al-Askari, T: around the year 395 AH, edited by: Ali Muhammad al-Bajawi, Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, Dar al-Fikr al-Arabi, The Modern Book Foundation for Printing, Publishing and Distribution, Kuwait, 2nd edition, (Dr. T).
14. Lisan Al-Arab, Ibn Manzoor: Muhammad Ibn Makram, 630-711 AH, Dar Al-Hadith, Cairo, 6th floor, (d. T.).
15. Color in Ancient Arabic Poetry, Zainab Abdel Aziz Al-Omari, The Anglo-Egyptian Press, Cairo, 1989.
16. Color, Muhammad Yusuf Hammam, Al-Etimad Press, Egypt, 1930.
17. Principles of Painting, Muhyiddin Talo, Damascus House, 3rd Edition, 1983.
18. Introduction to the theory of psychological criticism - the psychology of the poetic image as a model - Zain Al-Abidin Al-Mukhtari, Publications of the Arab Writers Union, Damascus, 3rd Edition, 1983.
19. The Literature Dictionary, Guiding Al-Arib to Know the Writer, Shihab al-Din, Abu Abdullah, Yaqut bin Abdullah al-Rumi al-Hamwi, 577-626 AH, edited by: Dr. Omar Farouk Al-Tabaa, Al Maarif Foundation for Printing and Publishing, Beirut, 1st Edition, 1992.
20. The Theory of Photography, Leonardo Da Vinci, translated by: Adel Silawi, The Egyptian Book Authority and the Family Library, Cairo, 1st Edition, 2005.
21. Modern literary criticism, Muhammad Ghanimi Hilal, House of Culture, Dar Al-Awda, Beirut, 1973.
22. Description of the animal in Andalusian poetry (the era of Al-Taifa and Al-Murabitin), Dr. Hazem Abdullah Khader, General Cultural Affairs House, Baghdad, 1987.

Patrols

1. The symbolism of colors in deceased poetry, d. Abd al-Salam al-Masawi, Amman Magazine, Issue 108, June, 2004.
2. Semiotics and Addressing, Dr. Jamil Hamdaoui, The World of Thought Magazine, Volume Twenty-fifth, Kuwait, 1977.